شخصيات

محمد إقبال.. رائد التجديد

وُلد محمد إقبال في التاسع من تشرين الثاني عام ١٨٧٧، تلقّى دروسه الأولى على يد والديه وشقيقه ومعلمه ليتخرج من مدرسة الوجدان التي تشرف عليها التربية الروحية، كان عميق الإيمان بالله ورسوله فعرف نفسه وصان كرامته.

وقد سُئل عن سر حكمته فقال: يعود الفضل إلى والدي الذي كان يقول: اقرأ القرآن كأنه منزل عليك. وكان إقبال يتصل بالطبيعة من غير حجاب، ويناجي ربه ويشكو حزنه إليه، فيتزود بنشاط قلبي، وغذاء فكري.

بعد نيله البكالوريوس، حصل إقبال على ليسانس الحقوق من جامعة لندن عام ١٩٠٥، ثم نال الدكتوراة في الفلسفة من جامعة ميونيخ. تزوج إقبال ثلاث مرات وزار معظم دول أوروبا والعالم. له عشرة دواوين أولها: أسرار النفس، وآخرها: رسالة من الحجاز.

كان عالماً عاملاً لا يعرف اليأس، وكان يلفت النظر إلى أن الدين إذا لم تترجم مبادئه إلى أعمال فسيكون فلسفة مجردة. نصح بالبحث في الأعماق لكشف سر الحياة.

■ شاعر ثائر:

وقصائد إقبال عميقة كحياته، هدف إلى تدمير الأساطير وإفساح الطريق بين العبد وربه مباشرة، يقول: عبِّد طريقك بفأسك. وقد دعا إلى إغناء الذات ودرس المجتمعات الإنسانية فقال: لا عبودية إلا لله ولا تنمو الإمكانات إلا في ظل الحرية. أراد للشعر أن يمتزج بحقائق الوجود، وأن يناجي النسائم. كان شاعراً فيلسوفا، ثائراً على الظلم والظالمين، داعياً لبناء عالم يعكس شمولية الإسلام. ناشد الذين يجهلون حقيقة الإسلام أن يمعنوا النظر في القرآن:

مئات العوالم منطوية في آياته
فلتدركوا معناه.
إن كانت في صدوركم قلوب.

ويردُّ إقبال على من يدَّعي وجود تناقض بين العلم والإسلام فيقول: من زعم ذلك فإنما يثبت جهله.

ومذهب إقبال في الفنون عامة أنها تقصد أن يتحلى الإنسان بالأخلاق التي أرادها الله، وكل فن اتسم بالضعف والفساد لا قيمة له، من هنا رفض دعوة «الفن للفن» لأنه يرى الفن تعبيراً عن تأثير الإنسان في الطبيعة ولإقبال قصيدة بعنوان «العالم بلا قلب» يطوف فيها بالبحر فيراه دائب الحركة فيسأله: هل بين آلاف الدرر واللآلىء التي في قاعه قلب كجوهر قلب الإنسان؟ لكن البحر يهرب بأمواجه. فيذهب الشاعر إلى الجبل ويسأل: أنت لا تسمع آهات البائسين، أفبين يواقيتك كلها ما يعدل قطرة من دماء المنكودين؟ لكن الجبل لا يحير جوابا. فيسامر الشاعر القمر: أنت دائم السفر، ويبين العالم كأنه خميلة جميلة ببهائك البديع، أفهذا النور المنبعث منك هو سنا حرقة قلبك؟ فينظر القمر شطر الشمس.. وعندئذ يتجاوز الشاعر الشمس والقمر ويمثل في حضرة الله عز وجل: عالمك واسع جداً، لا أستطيع أن أحيط بعلم ذرة منه.

ويتغنى إقبال في قصيدة «صدر الشاعر» بمزايا القلب، لكن أكثر الناس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، وآذان لا يسمعون بها، فكيف لهم أن يلحقوا بـ«مأدبة العشق»؟.. والعشق طاقة تحطم القيود!

وعن كلمة الحب يقول إقبال: سرقها الندى من السماء

وأوحى بها إلى الوردة، وسمعها البلبل من الوردة، وحملها نسيم الصبا من البلبل.. وعبَّر إقبال عن الفراشة التي تحترق لتصبح مضيئة كالشمعة.

أحب احتراقي بنار اشتياقي
ولا أرتضي عيشة الخاملين
فناء الفراشة في النار يعلو
حياة الجبان طوال السنين

هذا الاحتراق هو حب الإنسا ن لأخيه حتى لا يكون في الأرض ظلم ولا طغيان، والذي ليس في قلبه حب إنما هو شبه إنسان.

وإقبال حالم كبير، يقتحم أستار الظلمة لتنطق الأشياء بدلالاتها الكامنة فتنساب الحكمة ينابيع ضو ، وتكتمل العين بمرأى الفجر القادم.

■ **إقبال والعربية:**

كان إقبال يعرف اللغة العربية، ترى في قصائده كثيراً من الكلمات العربية إلى جانب التركية والفارسية وكلها مذابة في الأوردية. ونظر إقبال إلى العربية نظرة احترام لأنها لغة القرآن والحديث، وكان متفتح النفس تجاه جميع الأمم، إنه كاشف صادق لجوهر الحياة.

وإقبال كان داعية من دعاة الإسلام الصادقين، وكان يعدُّ نظام الإسلام حلاً واقعياً للمشكلات، وكان يعتبر النظم الوضعية مرفوضة، لأنها لا تهتم بطمأنة الروح. وأراد إقبال أن يقدم للمسلمين ما رأى أثناء رحلاته من مساوئ وأضرار، وأوضح أن الإسلام دين إنساني يدعو إلى المساواة بغض النظر عن الجنس واللون والمذهب، والحدود الجغرافية في نظره عقبة تمنع التقدم؛ ويرى إقبال أن الأمَّة الإسلامية يجب أن تعيش في اتحاد ووئام، فديننا واحد، ورسولنا واحد، وقرآننا واحد. ومما يؤكد عالمية نظرته، إلحاحه على مبدأ (وحدة الأصل الإنساني).

■■ **تحرير العقل:**

ولقد كان إقبال يؤمن بضرورة تحرير العقل، ففي إحدى خطبه يقول: «لم أكن يوماً في إحدى الجماعات أو الهيئات قائداً، ولا جنديا أخضع لقائد، وإنما استنفدت أعوام حياتي دراسة واطلاعاً لحقيقة الإسلام، وكان اهتمامي وتأثري بروح الأصول الإسلامية مما أكسبني بصيرة اكتشفت على ضوئها أن الإسلام حقيقة عالمية، وأن أصوله ضمان لتحقيق النتائج المرجوة». وكان إقبال مفكرا تربويا له أفكاره المميزة، يدرك أن قوة المؤمن مستمدة من رسالته، وأن الشهادة في سبيل الله أحب إليه من الحكومات والغنائم. ويحمِّل إقبال

بقلم: علاء الدين حسن

الشباب مسؤولية صياغة المستقبل، ويوجه خطابا إلى القائمين على أمور التربية فيقول: «ألقِ عليهم دروس التواضع والثقة، علِّمهم كيف يشقون الصخور، فالغرب لم يعلِّمهم إلا صنع الزجاج».

ومن أفكاره التربوية نظرته إلى الموت الذي لم يعد شيئاً مخيفاً، فمن يحرص على الموت توهب له الحياة.

■ **رائد التجديد:**

وإذا كان إقبال قد اهتم بقضية التجديد، فإن نقطة البدء في فكره الفلسفي إنما تتمثل في الذاتية، فمن عرف نفسه أحب ربه. وأراد إقبال أن يبدأ الطريق من ذاته بحيث ينطلق إلى الله، من هنا كانت فلسفته تتضمن دعوة لبعث جديد للأمة الإسلامية، لأن الإسلام يستوعب كل ثقافة وحضارة.

ودعا إقبال لرؤية الحياة العصرية على حقيقتها، وأشار إلى البناء على مالنا من مجد الماضي إلى جانب ما أنتجته الحضارة المعاصرة من رقي وتقدم. كان يحلم بعالم تسوده المحبة ونامت فيه الأهواء، نظر إلى الواقع فبدت أمراضه واضحة كالشمس، فأراد أن ينقذ السقيم، ووضع حكمته الخالدة التي هي وقود الخلاص، وحادي القافلة إلى السعادة.

■ **وصية إقبال:**

قال إقبال في وصيته لولده بأن يعيش كريما سمح الخلُق، ويكون مع ذوي الأرحام على دوام الصلة، فإذا عاملوه معاملة سوء فعليه بالصبر، ويمد يده لمساعدة الأقارب في حدود إمكاناته. والأصدقاء الذين كان يستأنس بهم عليه المحافظة على تقديرهم. وفي الأمور الدينية يقول له أن يتبع منهج السلف الصالح لأنه الأسلم، ويحذره من الفِرَق التي نشأت على أساس التبعية لمجرد المصالح الدنيوية.

ولقد بنيت مقبرة محمد إقبال بقرب المسجد الكبير بلاهور، بعد أن صدر عنه خمسة آلاف عنوان باللغات الحية، فهو لم يكن إنسانا عاديا، وإنما كان روحا تحلق في آفاق سامية، وقبسا من نور الحقيقة. عاش للحق والخير والجمال، كان قيثارة تهتف ألحانا حزينة، وشمسا يتوهج ضوؤها حيث أشرقت.. جسمه من تراب وقلبه من نور، مثَّل روح الإسلام في عمله وأدبه، وروح الإسلام تعني التسامح والوسطية، وتعني المعرفة الدقيقة بالإسلام الذي يريد للإنسان أن يكون مصدر إصلاح قائم على أساس من كتاب الله وسنَّة رسوله.

رحم الله إقبالاً، وأدخله فسيح جناته.